

لا يمكن تصور رواية بلا أعمال كما لا يمكن تصور أعمال بلا شخصيات، حيث قال ايف رويتر " كل قصة هي قصة شخصيات <sup>1</sup>. وفي نفس السياق تساءل هنري جيمس " ما الشخصية إن لم تكن محور الأعمال ، وما العمل إن لم يكن تصوير للشخصيات ، وما اللوحة أو الرواية إن لم تكن وصف طباع الشخصية <sup>2</sup>. لذا نجد بعض النقاد يعرفون الرواية بقولهم: "الرواية شخصية " .

## 1- مفهوم الشخصية :

إن مصطلح الشخصية قد لاقى تضاربا في استخداماته ، إذ إن بعض النقاد المعاصرين وقعوا في خلط بين "الشخصية" و "الشخص" ، لذا تراهم يقولون "الأشخاص" طورا والشخصيات طورا آخر ، وكأن أحدهما مرادف للآخر <sup>3</sup>. غير أن الشخصية كائن حركي ينهض في العمل السردى بوظيفة الشخص دون أن يكون الشخص نفسه . حينئذ تجمع الشخصية جمعا قياسيا على شخصيات ، لا على شخوص الذي هو جمع شخص . ويختلف الشخص عن الشخصية في كون الأول الإنسان في الواقع أو التاريخ ، خلافا للصورة التي تمثلها الشخصية في الأعمال السردية ، وإن كانت هناك إشارات وقواسم تجمع بينهما . ويفرق محمد عزام بين " الشخصية الروائية " و " الشخص الروائي " ، انطلاقا من كون الأولى عامة لها قوانين وأنظمة تقننها وتقعددها ، والثانية خاصة تعني شخصا معينا في رواية معينة ، له سماته الخاصة وصفاته النفسية والجسمية المحددة <sup>4</sup>. إلا أن كلاتهما تتلامسان تلامسا تلامس الخاص ضمن العام .

<sup>1</sup> - نقلا عن : جويده حماس : بناء الشخصية ( مقارنة في السرديات ) ، منشورات الأوراس ، الجزائر ، 2007 ، ص : 56.

<sup>2</sup> - نقلا عن : نبيلة زويتش : تحليل الخطاب السردى : دار الريحانة للكتاب ، الجزائر ، 2007 ، ص : 133.

<sup>3</sup> - عبد الملك مرتاض : تحليل الخطاب السردى ، مرجع سابق ، ص : 125.

<sup>4</sup> - محمد عزام : شعرية الخطاب السردى ، مرجع سابق ، ص : 11.

ويمثل مفهوم الشخصية عنصرا محوريا في كل سرد ، بحيث لا يمكن تصور شبكة سردية بدونها ، ومن ثمة كان التشخيص محور التجربة الروائية . ومع ذلك يواجه البحث في موضوع الشخصية صعوبات معرفية متعددة ، حيث تختلف المقاربات والنظريات حول مفهوم الشخصية اختلافا بلغ بها حد التضارب والتناقض ، وكأنا لا نتحدث عن العنصر نفسه . ففي النظريات السيكلوجية تتخذ الشخصية جوهر سيكلوجيا وتصير فردا أو شخصا أي ببساطة تصير " كائنا إنسانيا" ، وفي المنظور الاجتماعي تتحول الشخصية إلى نمط اجتماعي يعبر عن واقع طبقي ، وتعكس وعيا إيديولوجيا . بخلاف ذلك نجد أن البنيويين لا ينظرون إلى الشخصية بالمنظارين السابقين ، وإنما باعتبارها علامة يتشكل مدلولها من وحدة الأفعال التي تنجزها في سياق السرد ، وليس خارجه كما يقولون . فالتحليل البنيوي بتجريده للشخصية من جوهرها السيكلوجي ، ومرجعها الاجتماعي ، لا يتعامل مع الشخصية بوصفها ( كائنا ) أي شخصا ، وإنما بوصفها فاعلا ينجز دورا في الحكاية . والعبرة من وجهة نظر بنيوية كامنة في ما تقدمه الشخصية من عمل ، فهي لا تنمو إلا من وحدات المعنى . إنها تصنع من الجمل التي تنطقها هي أو ينطقها عنها الآخرون<sup>1</sup> .

يعرف الباحث المغربي "حميد لحميداني" الشخصية بأنها "الشخصية الفاعلة العاملة بمختلف أبعادها الاجتماعية والنفسية والثقافية ، والتي يمكن التعرف عليها من خلال ما يخبر به الراوي ، أو ما تخبر به الشخصيات ذاتها ، أو ما يستنتجه القارئ من أخبار ، عن طريق سلوك الشخصيات"<sup>2</sup> . وبذلك تكون الشخصية الحكائية الواحدة متعددة الوجوه ، وذلك بحسب تعدد القراء واختلاف تحليلاتهم ، وبالتالي فإن النص الروائي يفتح على مجموعة من التأويلات ، تبعا لاختلاف وتعدد القراءات . في حين يذهب بعض الباحثين إلى اعتبار الشخصية نتاج عمل أدبي تألفي ، بمعنى أن هويتها

<sup>1</sup> - حميد لحميداني : بنية النص السرد ، مرجع سابق ، ص 50 .

<sup>2</sup> - المرجع نفسه ، ص : 51 .

موزعة في النص عبر الأوصاف والخصائص التي تستند إلى اسم (علم) يتكرر ظهوره في الحكيم .

إن الشخصية الروائية تشكل بؤرة مركزية لا يمكن إغفالها ، أو تجاوز مركزيتها . والرواية كما هو معلوم أكثر الأجناس الأدبية ارتباطا بالشخصية لا يقاربها في ذلك سوى المسرحية التي سبقتها في الظهور ، ولكن المرونة الكبيرة للرواية بوصفها جنسا أدبيا ، والحرية التي يمتلكها الروائي في تشكيل عوامله ، ورسم شخصياته جعلتا الشخصية الأدبية أكثر اقترانا بالرواية منها بالمسرحية ، وهذا ما يتيح للروائي بذل ما يريد من جهود ، واستثمار ما يشاء من وسائل معرفية وتقنية في سبيل تمكينه من تحقيق بعض التفوق في رسم شخصياته<sup>1</sup> .

ونظرا لتعدد المفاهيم ووجهات النظر فيما يخص تحديد مفهوم للشخصية ، فإنه يمكن لنا أن نحصرها عموما في ثلاثة اتجاهات أو مواقف هي :

- 1- فريق يرى أن الشخصية كائن بشري من لحم ودم يعيش في مكان وزمان معينين .
- 2- ويرى آخرون أن الشخصية هيكل أجوف ووعاء مفرغ يكتسب مدلوله من البناء القصصي الذي يكسبها هويتها .

- 3- وفريق من جهة أخرى يرى أن الشخصية متكونة من عناصر البنية ، وهي علامة من العلامات الواردة في النص ، إلا أنها ليست رمزا لهيكل بشري له ذات متميزة ، أي تتحول إلى دليل له وجهان دال ومدلول .

إن هذه التباينات في جوهرها تشير بمعنى من المعاني إلى الدور الخطير الذي تلعبه الشخصية بوصفها عنصرا في العملية السردية ، كونها تجسد فكر الروائي ، وتؤثر تأثيرا عظيما في سير الأحداث وتوضيحها . فمن خلال تحركاتها وعلاقاتها يستطيع الكاتب أن يبني عمله الفني ، ويطوره ليصل إلى فكرة معينة يسعى إلى تبيانها .

<sup>1</sup> - صلاح صالح: السرد و سرد الآخر (الأنا والآخر عبر اللغة السردية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب) - بيروت، ط 1،

إذاً فدراسة الشخصية الروائية من أهم الوسائط الرامية إلى إضاءة عوالم الرواية ويكون ذلك من خلال مستويين :

**الأول :** فني جمالي ، إذ يدخل رسم الشخصية في صلب ما يعطي الرواية قيمتها الفكرية والجمالية ، وبلغ من عناية الروائيين برسم الشخصية أنها اعتمدت أساساً لتصنيف بعض الأنماط الروائية ، فعرف الاصطلاح الأدبي "رواية الشخصيات" التي استخدم فيها الروائيون براعتهم الحرفية ، وخبراتهم المعرفية لعرض شخصيات تمتلك قابلية الرسوخ في ثقافة الإنسان ، فقد كان الروائيون يشعرون دائماً أن في الشخصية شيئاً شيقاً وممتعاً .

**الثاني :** فكري معرفي ، باعتبار الشخصية نافذة مترعة للإطالة على البنى المتجاورة في القطاع الإنساني ، الاجتماعي ، التاريخي مما تشمله الإطالة<sup>1</sup> .

إن الطبيعة المطاطية لعنصر الشخصية جعلتها خاضعة لكثير من المقولات دون أن تستقر على واحدة منها ، وهو ما يجعل اختيار قراءة معينة ينبع من طبيعة النص وشخصياته ، وليس العكس . وباعتبار أن رواية "كتاب الأمير" نص منفتح على مرجعيات ثقافية متعددة ، فإن مقارنة بناه السردية ، بما فيها الشخصية ، سوف لن تقتصر على بنية الشكل ، بل ستتجاوز ذلك إلى مضمورات النص التي تمثلها المرجعية التاريخية أحسن تمثيل في المتن المدروس .

## 2- تقديم الشخصيات :

إن القضية التي لم يحسم فيها بعد هي الطريقة التي يقدم بها الروائي شخصياته في الرواية ، ونحن إذا نظرنا إلى النوع الروائي عبر تاريخه ، وفي شموليته ، فإننا سنرى أنه من الصعب تحديد التعبير الأدبي للشخصية ، حيث يلجأ جميع الكتّاب إلى تقنيات مختلفة لتقديم الشخصيات إلى القارئ ، فهناك من جهة الروائيون الذين يرسمون

<sup>1</sup> - ينظر: صلاح صالح: السرد وسرد الآخر، مرجع سابق، ص: 102-103.

شخصياتهم بأدق تفاصيلها ، وهناك من يحجب عن الشخصية كل وصف مظهري<sup>1</sup> . ومن جهة أخرى هناك من يقدم شخصياته بشكل مباشر ، وذلك برصد طبائعها وأوصافها ، أو يوكل ذلك إلى شخصيات أخرى ، أو حتى عن طريق الوصف الذاتي ، حيث تتحدث الشخصية عن نفسها كما في الاعترافات .

وأمام تعدد المشاكل التي يطرحها تقديم الشخصية ، من حيث التنوع والاختلاف ، يقترح " فيليب هامون " مقياسين أساسيين ، يفيدان الدارس للنص السردي في القيام بهذه المهمة :

- المقياس الكمي : وينظر إلى كمية المعلومات المتواترة المعطاة صراحة حول الشخصية .

- المقياس النوعي : ينظر إلى مصدر المعلومات حول الشخصية ، هل تقدمها الشخصية عن نفسها مباشرة ؟ ، أم على طريقة غير مباشرة ، بواسطة التعليقات التي تسوقها الشخصيات الأخرى أو المؤلف ، أم أن الأمر يتعلق بمعلومات ضمنية تم الحصول عليها من خلال فعل الشخصية ونشاطها<sup>2</sup> .

تكمن أهمية هذين المقياسين في كونهما يجنباننا الدخول في متاهات الفصل والتمييز على أساس غير دقيق ، مما يترتب عنه الالتباس والغموض الذي يلحق دراسة الشخصيات ، كما في التحليلات التقليدية .

إن مصدر المعلومات عن الشخصيات في رواية "كتاب الأمير" هو السارد ، حيث نجده يخبرنا عن أوصافها وطبائعها ، أو يوكل ذلك إلى شخصية أخرى من شخصيات الرواية ، فيكون بذلك السارد وسيطا بين الشخصية والقارئ ، أو تكون إحدى الشخصيات وسيطا بين الشخصية والقارئ ، وبدرجة أقل يترك السارد الشخصية الروائية

<sup>1</sup> - حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي ، مرجع سابق ، ص:223.

<sup>2</sup> - ينظر : محمد بوعزة : تحليل النص السردي ، مرجع سابق ، ص : 43.

تقدم المعلومات بنفسها بدون أي وساطة ، وبهذا نستطيع أن نميز في رواية الأمير بين طريقتين من طرق تقديم الشخصيات الروائية وهي :

## 2-1- التقديم الغيري :

مما يدعو للانتباه أن الطريقة التي يتبعها المحدثون في تقديم شخصياتهم السردية وتحليلها ، ورسم ملامحها ، وطباعها النفسية تختلف اختلافا واضحا عن طرائق المتقدمين ، فقد كان الناظمون للملاحم البطولية ، والسير الشعبية يقدمون شخصياتهم بطرق مباشرة ، عن طريق الراوي الذي يتحدث عنها ويعرفنا بها ، ويذكر لنا أفعالها البطولية . إلا أن السرد الحديث قد تجاوز تلك الطرق التقليدية ، وأصبح الروائي يتعد عن المباشرة في التقديم ، ويقدم لنا المعلومات في أطر جديدة ، من خلال حوار الشخصيات ، وأفعالها ، واتباع ما يعرف بالمونولوج الداخلي ، وما يعرف باسم تيار الوعي<sup>1</sup> ، نظرا للاهتمام الكبير بالتعبير عن كل ما هو شخصي وفردى ، مما يلقي الأضواء الكاشفة على الحياة الداخلية للشخصيات الروائية .

ومن الطرق الحديثة التي غالبا ما يلجأ إليها الروائيون في تقديم شخصياتهم حديث الشخصية عن شخصية أخرى ، حيث يكلف الراوي شخصية لتقوم بتقديم المعلومات ، وهي الطريقة الأوفر استخداما في رواية "كتاب الأمير" ، وهذا راجع ربما إلى أن الشخصية الروائية كان لها نصيب وافر في سرد الأحداث ، مما يترتب عنه تقديم المعلومات عن الشخصيات ، خصوصا حينما يتكلم جون موبى عن سيده مونسنيور ديبوش : >> كان يحب الماء والصفاء والنور والسكينة ، على الرغم من الظروف القاسية التي لم تمنحه إلا المنفى والجري وراء سعادة الآخرين حتى نسي نفسه . لقد منح

<sup>1</sup> - إبراهيم خليل : بنية النص الروائي ، مرجع سابق ، ص : 177.

كل شيء للدنيا ، ونسي أنه هو كذلك كائن بشري ، في حاجة لمن يأخذه من الكتف بشوق ومحبة ويحسسه بوجوده <<<sup>1</sup>.

من الواضح هنا أن تقديم جون موبي لم يركز على الجوانب الشكلية الظاهرية للشخصية ، بل إنه قد أشار إلى أهم مقومات الشخصية الروائية ( مونسنيور ) ، الذي لم يعش لنفسه بل عاش من أجل أناس آخرين يخدمهم ويقدم لهم يد المساعدة ، ورغم أن الدنيا لم تمنحه إلا المتاعب ، فإن هذا لم يثني من عزيمته ، وظل متمسكا بقناعاته وأهدافه السامية . ولعل في إبراز هذه الشخصية في فاتحة الرواية ما يشير إلى أهميتها ، والأدوار الحاسمة التي سوف تقوم بها في أحداث الرواية .

وفي تقديم "جون موبي" لشخصية سيده مونسنيور نجده دوما يتحدث عن أخلاقها ونبلاها والتضحيات التي قام بها مونسنيور من أجل قضيته الإنسانية ، مما يعكس الأثر الكبير الذي يتركه مونسنيور في نفسية خادمه جون موبي : >> مونسنيور ديوش . لقد صار مرضه الذي حمله طويلا في جسده حتى لا يزعج الآخرين واضحا ، كان عندما يتألم لا نعرف جيدا إذا ما كان يبتهل ويشكر الله ، أم يتألم من ضغط القسوة التي صار من الصعب عليه مقاومتها <<<sup>2</sup>.

وقد يلجأ السارد إلى طريقة أخرى في تقديم للشخصية ، وهي طريقة أكثر فنية من السابقة ، حيث يدع الشخصية تقوم بعمل ما ، لافتا النظر من خلاله لبعض صفات هذه الشخصية ، وهي طريقة أوفر تعبيراً عن ذاتية الشخصية وفرديتها ، من الطريقة المباشرة . فجون موبي الذي لا يكاد يفارق سيده ، وهو أعلم الناس بحاله وهمومه ومشاغله يحدثنا عن سيده : >> ... يمسح على وجهه الطيب بيديه الناعمتين ويقوم من مكانه قليلا لتجنب آلام الظهر ، فهي كلما اشتدت عليه لا حل لها إلا الدوران داخل البيت

<sup>1</sup> - الرواية ، ص : 11.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص : 203.

حتى تسكن»<sup>1</sup>. وقوله: >> لم يستطع أن يخبئ الوهن الذي علا وجهه في شكل صفرة ليمونية فقد تضاعفت الحمى القاسية التي كانت تبدأ من القفا... وتستقر عند عظمة الرقبة، حيث تجمد كل حركاته حتى ساعة متأخرة من الليل. فقد تعود أن يلاعب مرضه ويداريه بأن يحني رأسه قليلا ليستقر على الوضع الذي يناسبه»<sup>2</sup>.

ففي هذه الفقرة يتضح أن مونسيور متقدم في السن، يجد صعوبة في إيجاد وضعية مناسبة للجلوس للتجنب آلام ظهره، ويبدو رجلا صحته متدهورة، يسهر كثيرا من أجل إنهاء ما بدأ به، تشده في ذلك عزيمة وإصرار كبيرين، بمقاومته لمرضه، وآلامه. كما أنه إضافة إلى هذه الأوصاف والأحوال رجل ذو وجه طيب ويدين ناعمين. وقد تسلك الشخصية في اتجاه آخر مسلك الوصف الخارجي في تقديم المعلومات، حيث نجد تركيزا على الملامح والأعضاء كالعينين والبشرة... أو ما تعلق بالصفات المعنوية كالوقار والهيبة والتواضع. ويتوافر هذا النوع من التقديمات خصوصا في النصوص التاريخية وكتب السيرة والتراجم، حيث نجد المؤلف يورد وصفا دقيقا للشخصية المتحدث عنها أو المترجم لها. ولعل من مبررات لجوء الروائي لمثل هذه التقديمات الوصفية هو تعامله مع نصوص موثقة اعتنت أيما عناية بشخصية الأمير عبد القادر (بطل الرواية) شكلا ومضمونا. ومن أمثلة هذا النوع من التقديمات، قول الشخصية الروائية في الأمير: >> كان عمره تقريبا خمسا وثلاثين سنة، بقامة متواضعة، يتجلى منه وقار عال، وجهه دائري وملامحه متكاملة، لحيته كثة، وتنحو نحو سواد ظاهر، بشرة وجهه بيضاء، مائلة إلى بعض الصفرة على الرغم من سمرتها من شدة الحر، عيناه الزرقاوان جميلتان وموحيتان، صامت، نظرتة دائما في حالة تأمل وخجل، ولكنه حينما يتحدث تتقد عيناه بقوة، وكلما تعلق الأمر بالدين رفرفتا خشوعا، تارة باتجاه

<sup>1</sup> - الرواية، ص: 217.

<sup>2</sup> - الرواية، ص: 281.



الأرض وأخرى باتجاه السماء ، بسيط ويبدو عليه انزعاج كبير من هالة القداسة التي تحيط به ، ليس من السهل رؤية هذا الإنسان يضحك ، الصداقة حاجة قلبية بالنسبة له...<sup>1</sup> .  
 من خلال هذا التقديم المطول نوعا ما ، نستطيع أن نكون صورة واضحة عن شخصية الأمير في مظهرها الخارجي خاصة ، إذ نلمس في تلافيفه وصفا دقيقا ذكرنا بطرق التقديم التقليدية المباشرة ، ربما لأنه متعلق بالنص التاريخي . ولو جئنا إلى التقديمات الروائية ، لوجدنا أن الروائي لا يقدم أوصاف الشخصية دفعة واحدة ، بل يجعلها متناثرة في تلافيف السرد الروائي ، مما يؤكد أن التقديم السابق كان استثنائيا ، ولا يوجد في النص الروائي تقديمات أخرى على شاكلته ، من حيث الإسهاب في وصف الشخصية ، ( قامة متواضعة ، وجه دائري ، لحية كثة سوداء ، بشرة بيضاء مائلة نحو الصفرة ، عيان زرقاوات جميلتان ، بسيط ، ينزعج من هالة القداسة المحيطة به ، نظره دائما في حالة تأمل ، خجول ، غيور على الدين ، قليل الضحك...).

والملاحظ كذلك أن السارد لم يقدم شخصية الأمير بنفسه ، بل كلف إحدى الشخصيات بذلك ، وإن حدث وفعل ذلك فإن كمية المعلومات التي يعطيها حول أوصاف الشخصية وطبائعها تكون مقتضبة ، وسرعان ما يتحول إلى سرد الأحداث التي تتخللها كذلك بين الفنية والأخرى معلومات عن ظواهر الشخصيات وسلوكياتها وطبائعها والعلامات المميزة لها ، كقول الشخصية - السارد ، حكاية عن القوال الذي يقص قصصا مشوبة بالأساطير : >> يقول أنه انتهى من قصة السيد علي ورأس الغول ، وبدأ هذه الأيام يروي قصصا غريبة عن رجل سيأتي وسيملاً صيته الدنيا قاطبة . رجل يشبه المسيح ابن مريم وهو ليس مسيحا ، هو مولى الساعة كما يقولون ، وكما يقول القوال في السوق <<<sup>2</sup> . كذلك قوله : >> أبشركم أن هاتفا وقف على سيدي الأعرج وسيدي محي الدين وبشرهم بسلطان سينزل من لحمهم ، فارس لا شيء يشبهه ، فيه من

<sup>1</sup> - الرواية ، ص : 282.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص : 67.

روح الله واستماتة المجاهد وسمة الأنبياء . اليوم ستم مبايعة هذا السلطان الذي سيحارب  
فلول الغزاة <<<sup>1</sup>.

على عكس التقديم الغيري السابق الذي ركز على الوصف الخارجي  
للشخصيات ، ينحو هذا التقديم منحى الأسطورة والإشادة بشخصية عظيمة سوف تظهر.  
إنه رجل كامل الصفات يشبه المسيح عيس بن مريم ، شجاع ومقدام ، فارس ، لا شيء  
يشبهه . ولعل في تشبيهه بالمسيح ما يحمل كثير من الدلالات ، من بينها أن هذا الرجل  
سيكون له شأن عظيم ، وسيعاني من تنكر بني جلدته وخيانتهم ومحاربتهم له ، كما كان  
حال الأنبياء والرسل من قبل ، لذا نجد السارد يقول : "له سمة الأنبياء". كما يشير ذلك  
إلى أن الأمير سوف يدخل في مسالك صعبة وطرق ملتوية ، يحوطها الغزاة من جهة  
والأقارب الأعداء من جهة أخرى ، الأمر الذي سيؤدي به إلى استنفاد كل ما لديه  
واستسلامه في نهاية المطاف ، بعد أن يدوخ العدو تدويخا ، ويعطي درسا لا ريب فيه في  
الجهاد والتضحية.

ومن التقديمات الغيرية التي تحيلنا على الأسلوب التقليدي في عرض  
الشخصيات : >> يبدو مونسنيور في الليتوغرافيا هادئا وقريبا من مصوره ، ينظر نحو أفق  
غامض بعيدا عما كان يحيط به بلحيته السوداء المنسدلة على صدره ، والتي تكاد أن  
تغطي الجانب العلوي من الصليب الذي كان يتدلى بارزا من عنقه . اللباس الفضفاض  
الأسود الذي كان يرتديه أعطاه سمته غير حقيقية . أما قبضة يده اليمنى التي كانت تنام  
على ركبته فقد برز على سبابتها خاتم خشن لم يتركه مونسنيور ديبوش حتى مات ، بينما  
اليد اليسرى كانت تحتضن الإنجيل وتقبض عليه بلهفة كبيرة مخافة ضياعه <<<sup>2</sup>.

بخلاف المسرود السابق الذي كان مصدر المعلومات فيه شخصية روائية ،  
يلجأ الراوي هنا إلى التكفل بعرض أوصاف شخصية مونسنيور ديبوش ( الشخصية

<sup>1</sup> - الرواية ، ص : 71.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص : 19.

( المحورية الثانية ) ، ويبدو وسيطا بين الشخصية والقارئ ، وإن كانت هذه الأخبار المقدمة تحمل طابعا شكليا في ظاهرها : ( لحيته سوداء ، يرتدي صليبا ، لباسه أسود فضفاض ، يضع خاتما ... ) ، فإن هناك معاني كثيرة تكمن من ورائها ، باعتبار أن السارد يقدم المعلومات في سياق سرده لحكاية " جون موبي " الذي كان يقلب صفحات كتاب سيده مونسنيور الذي أهده للرئيس لويس نابليون ، فوقعت عيناه على صورة لمونسنيور ديبوش ، قال السارد أنها هي نفسها التي كان يعلقها الأمير في البهو المؤدي إلى الصالون الذي كان يستقبل فيه ضيوفه في سجن قصر أمبواز . فالتقديم لشخصية مونسنيور كان من خلال الحديث عن صورة ديبوش الليتوغرافية التي بدا ينظر فيها إلى أفق غامض بعيدا عما كان يحيط به ، حيث نلمس أن هذا الوصف فيه إشارة إلى مستقبل الشخصية في الرواية التي سوف تمر بظروف صعبة ، وتحمل على عاتقها ديونا كثيرة ، ليس من أجل مصلحة شخصية ، بل من أجل قضية إنسانية ، مساعدة الفقراء والمحتاجين واليتامى ، قضية آمن بها مونسنيور ، كما آمن بشرعية قضية الأمير المسجون ، الذي ظل يدافع عنه حتى أخرجه بكتابه المهدي إلى لويس نابليون .

يبدو القس ديبوش من خلال التقديم رجلا متدينا نصرانيا متمسكا بتعاليم دينه وقيمه الروحية ، فهو يقبض على الإنجيل بلهفة ، مما يؤسس لمعنى الحب والتعظيم الذي كان يحمله ديبوش تجاه كتابه المقدس . ويبدو واضحا أن هذا التقديم رغم أنه قد رست على سطحه بعض ملامح التقديمات التقليدية ، إلا أننا حينما نقرأه في سياق السرد تتلاشى معه هذه الملامح ، وتطفو على السطح سمات حدثية تنم عن براعة في تقديم الشخصيات ، ليس بمعزل عن سرد الأحداث ، حيث يشعر القارئ بفضول لمعرفة المزيد عن خبايا هذه الشخصية التي كانت تنظر في أفق غامض لا نعرف عنه شيئا ، وترتدي خاتما لم يتركه الرجل حتى مات ، يجعلنا نتساءل دوما عن قصته .

ومن الطرق الجديدة التي اعتمدها السارد في التقديم ، ما يسمى بالمونولوج الداخلي ، الذي " يجعل الشخصية أكثر حيوية ، وأوفر إحساسا ، وتتدفق مشاعرها تدفقا

عفوياً، مما يقلص المسافة بينها وبين القارئ من جهة ، ويجعل تصوير المؤلف أكثر مصداقية من جهة أخرى<sup>1</sup>. ورغم أن هذه الطريقة ليست جديدة كل الجدة ، إذ نلّفها في الملاحم والسير ، إلا أن من وجوه التميز التي ظهرت بها حديثاً أن الشخصية في المونولوج لا تقدم أخبار عن نفسها فقط ، بل تقدم حتى أخبار الآخرين ، وتحاول ربطها بمجريات الأحداث ، وما تقاسيه هي في خضمها . فنجد الشخصية في الرواية تكلم نفسها : >> لماذا الحزن ، أليس هو من اختار هذا المسلك؟ كان يمكن أن يكون أنايا ويموت ويدفع معه إلى الهلاك أناسا كثيرين في حرب يائسة تماما ، حرب كان العربي والفروسي ما يزال يمجدها ، ولكنها توقفت على حافة القرن الجديد . أصبحت للحروب لغة أخرى لم يكن قادراً على إتقانها . كان يمكن أن يحمل سيفاً ويظل يخترق به الهواء والفراغات ويحارب المهزومين الذين إذا بايعوه اليوم خانوه غدا...<<<sup>2</sup>.

من خلال هذا المقبوس تظهر مزايا استخدام المونولوج الذي أضفى الطابع الدرامي على الشخصية ، ويبدو الكاتب قد تنحى جانبا ، تاركا المجال للشخصية ذاتها أن تعبر عما لديها من أفكار ومشاعر ، وهو اجس متعلقة بتيمة الحرب خاصة ، فالشخصية ترى في حوارها لذاتها أن هناك أمور لا يجد الإنسان فيها خيارا ، وأن التهور فيها يؤدي إلى هلاك أناس كثيرين . الأمير وجد نفسه أمام آلة حربية عظيمة ، وأمام أناس بايعوه وثاروا ضده ، في حافة زمن أصبحت للحروب فيه لغة أخرى مغايرة ، لم يستطع الأمير مجاراتها ، لكنه كان متيقنا بأنه سوف يأتي من يستطيع فعل ذلك .

ويظهر السارد اتكائه على المونولوج الداخلي جزئياً حين يتحدث عن شخصية "جون موبي" : >> تمدد جون موبي في القارب القديم ، رأى الأشعة التي بدأت تدفع المكان ، والنهار الذي أصبحت كل ملامحه واضحة<<<sup>3</sup>. في هذا نجد

<sup>1</sup> - إبراهيم خليل : بنية النص الروائي ، مرجع سابق ، ص : 182.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص : 455.

<sup>3</sup> - الرواية ، ص : 18.

السارد يستخدم الأسلوب التقليدي المباشر ، مواصلا : >> أخرج كتابا من تحت لباسه الفضفاض الذي يشبه لباس الرهبان <<<sup>1</sup> . مازلنا نلاحظ هنا التزام السارد بالتقديم التقليدي ذاكرة الهيئة التي كان عليها جون موبي ، لكنه لا يبقى على هذه الحال ، فسرعان ما يحاول الاقتراب تدريجيا من "جون" ، والالتصاق به لكي يكون صوته وصوت الشخصية صوتا واحدا : >> لا يعرف جون ما هو الداعي لكل هذه التفاصيل ، ولكنه أحس أن كل ما كان يلمسه كانت له قيمة ما <<<sup>2</sup> . يقترب السارد من هواجس وأفكار جون موبي ، فكأنه يتحدث بصوته ، كاشفا عما يدور في ذهنه وتفكيره ، وما توصل إليه من نتائج : >> ليلة البارحة قضاها في إعادة قراءته ، كلما فتحه عرف لماذا اختار مونسنيور أرض الجزائر كمثواه الأخير...<<<sup>3</sup> . السارد هنا يتكلم مكان الشخصية وكأنه هو الذي قرأ الكتاب ، وهو الذي عرف لماذا اختار مونسنيور أرض الجزائر . ويمثل هذا المقبوس أقصى حالات اندماج الراوي بالشخصية الروائية ، حيث يعلن تخليه عن وظيفته السردية ، والانتقال تدريجيا من السرد الخارجي إلى السرد الداخلي .

نحن إذا أمام طرح جديد في رسم الشخصيات التي تختلف اختلافا بينا عن الأساليب المباشرة التي تركز على الوصف الخارجي الذي لا يخلو بدوره من المعاني ، ولا يتجرد من الفائدة ، كما سبق تمثيله في مقبوسات سابقة . وقد لفتت هذه الطريقة نظر الكتّاب لما فيها من تجديد وانفتاح وتحرر من قواعد السرد التقليدي ، ولما فيها من إطلاق لحرية الشخصية ، واهتمام بها وبوعياها الباطني الذي يتدفق على هيئة تداعيات تمثل الشكل الذي تتشكل فيه أفكار الإنسان ، مسترسلة بلا ضوابط .

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 18.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص: 19.

<sup>3</sup> - الرواية ، ص: 19.

## 2-2- التقديم الذاتي :

إن الشخصية وفق هذا المبنى تقدم ذاتها بذاتها ، مستغنية عن كل الوسائط التي يمكن أن يعزى إليها وظيفة نقل المعلومات المتعلقة بها إلى الملتقي ، حيث تعرض نفسها ، وتعبر عن ذاتيتها ، وتحدد أفكارها وطموحاتها ، وبذلك تبلور موقعها الخاص في منظومة الحكمي<sup>1</sup> .

إن هذا التقديم من شأنه أن يساعد على معرفة الشخصية ، والاقتراب منها وكشف جوانب مهمة من كينونتها ودواخلها ، وكل ما هو ملتصق بنفسيتها من مشاعر وأحاسيس وهموم ، كما أن هذا النوع من التقديم هو الأقرب إلى فهم القارئ وشعوره ، لأنه يستقبل المعلومات من صاحب الشأن ، لا بواسطة الآخرين .

من التقديمات الذاتية ما جاء عن طريق الحوار الثنائي ، بين الأمير عبد القادر ومونسنيور الذي بدأ بالكلام قائلاً : >> - أعتقد أن الوطن والأرض والناس هو كل ما يمكن أن نحمله معنا . كنت في طوران بين ممارساتي الخيرية والدينية . وعين الشرطة التي طردتني فيما بعد لأنني صرت خطراً عليها ، ولكن لا أحد استطاع أن يفصلني عن الأرض التي تبنتني ، الجزائر... لم أستطع استرجاع القديس أوغستين ولكنني استرجعت الذراع التي فعلت الخير..

- ... أنا كذلك أتمنى إذا لم تسبقني تربة مكة إليها أن أعود إلى نفس تلك الأرض... أتمنى أن يوضع قبرانا جنب بعضهما البعض ، قد يبدو ما أقوله لك مجرد حلم ، لكن هذا ما أحس به ... لقد دفنت جزءاً من عائلتي في هذه التربة وكم أتمنى أن لا يدركني الموت إلا وأنا في أرض تمنيت الذهاب إليها<sup>2</sup> .

إن هذا التقديم الذاتي من طرف الشخصيتين الأمير ومونسنيور ، لم يكن بطريقة مباشرة ، بل تم بواسطة الحوار الذي يعد من الأساليب الحديثة في التقديم ، والتي

<sup>1</sup> - نقلاً عن زهيرة بني : بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان (مقاربة بنوية) ، رسالة دكتوراه ، جامعة باتنة (الجزائر) ، 2007 ، ص: 87.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص: 218 - 216.

يلتقي فيها فن الرواية مع المسرحية ، فكما أن الحوار في هذه الأخيرة أداة لتحليل الشخص ، وإبراز الملامح الخاصة بها ، كذلك يعد في الرواية وسيلة يستطيع بها المؤلف التأثير على الشخصية ، وإظهار بعض ملامحها التي لا تتضح كثيرا من خلال الأفعال أو الوصف الخارجي .

إن حوار مونسنيور مع الأمير كشف كشافا واضحا عن ذلك التوافق والانسجام الحاصل بينهما ، وكأنهما يفكران بعقل واحد ، ويبدو هذا الأمر طبيعيا إذا علمنا أن كل من الرجلين معجب بشخصية الآخر ، ويرى فيه مثلا أعلى في الصدق والوفاء والإخلاص . كما أنهما طيلة أحداث الرواية قليلا ما نجدتهما يختلفان في وجهات النظر . مونسنيور كان يكن حبا كبيرا للأمير ، ولأرض الجزائر التي تمنى أن ترجع رفاته إليها بعد موته ، والأمير بدوره كان يحمل حبا كبيرا للقس ديبوش ، ويتمنى أن يوضع قبراهما بجانب بعضهما البعض في الأرض التي شهدت أفراحهما وأحزانهما . والشيء المشترك بينهما أن كلاهما نفي من الأرض التي أحبها وعشقها . الأمير ضحى وناضل من أجلها ومن أجل كرامة أهله وشعبه . أما مونسنيور ففضى حياته فيها منتقلا بين دور الأيتام والمستشفيات ، لمساعدة من يحتاجون المساعدة ، ولم يكن جزاء الرجلين في الأخير سوى المتاعب والمنفى .

يبدو التقديم الذاتي في إطار الحوار الثنائي ذو أثر كبير في رسم الشخصية، خصوصا عندما تسرد بضمير المتكلم ، فحينما تقول الشخصية : >> لا أحد استطاع أن يفصلني عن الأرض التي تبنتني الجزائر << . ويقول الأمير : >> المنفى يهون عندما تمنحنا الدنيا فرصة السفر الأخير ، ولو في شكل رماد نحو ترابنا الذي أحبيناه <<<sup>1</sup> . نحس بعمق كبير بتلك العلاقة الوطيدة ، المتينة الموجودة بين الشخصية ، وأرض الجزائر

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 216.

وتتكشف أمامنا ملامح غير متعلقة بالشكل ولا بالفعل ، وإنما بالوجدان ونفسية الشخصية وعاطفتها .

والحوار إضافة لما تقدم ذو فائدة في تحليل الشخصية الواحدة ، وإلقاء الضوء على عالمها الداخلي ، والكشف عن طباعها وطموحاتها ، بالقدر الذي يسهم فيه المونولوج الداخلي في هذه المسألة .

ومن وجوه التقديم الذاتي في رواية الأمير ، حديث شخصية القس مونسنور بضمير المتكلم : >> سيدي السلطان ... أنت لا تعرفني ولكني رجل مؤمن متفان في خدمة الله مثلك تماما ، لو كنت أملك القوة للركوب على ظهر حصان الآن لجئتك للتو ولن تثني عزمي لا دكنة الظلمة ولا هدير الرياح ... قد لا أستطيع المجيء إليك ، ولكن اقبل مني من ينوب عني في هذه المهمة محملا برسالة مني ، أتمنى أن يباركها الله . فأنا لا أملك ذهباً ولا فضة ولا أستطيع أن أمنحك بالمقابل إلا صلوات روح صادقة <<<sup>1</sup>.

يقدم مونسنور لنا نفسه في هذا المقبوس ، إذ يبدو رجلاً متمسكاً بدينه ، يكرس جل وقته في خدمته ، متقدم في السن ، يعاني من مرضه ، لا يستطيع أن يجهد نفسه كثيراً ، كما يبدو ذو إرادة وعزيمة كبيرتين ، لا يكل ولا يمل حتى يحقق أهدافه ، متفان في مساعدة الآخرين ، رغم أنه رجل فقير . هذه المعلومات المقدمة عن شخصية مونسنور جاءت من منظور ذاتي ، وليس من منظور غيره ، متعلق بالراوي أو الشخصية الوسيطة بين القارئ والشخصية المقدم لها . هذا التقديم الذاتي من طرف الشخصية نفسها باستخدام ضمير المتكلم " أنا " من شأنه أن يقرب بين الزمنين : ماضي وحاضر الشخصية باعتبارها شخصية تاريخية تم إحيائها من جديد في عالم الرواية ، حيث تبدو وكأنها غادرت الزمن الماضي لتعيش في الحاضر من جديد<sup>2</sup> . على عكس التقديمات غير المباشرة التي من شأنها أن تفصل بين ما هو ماضٍ وما هو حاضر ، وتصبح الشخصية

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 49

<sup>2</sup> - ينظر : محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص: 111.



بموجب ذلك " منتمية إلى زمن مضى دون رجعة"<sup>1</sup>. وهذا ما ينطبق على جل شخصيات الرواية ، باعتبارها شخصيات لها وجود خارج عالم الرواية . فمونسنيور ديوش مثلًا حينما يتحدث عن نفسه : >> خرجت كالسارق من بيتي يوم الأربعاء 13 أوت 1851م ، كنت في بوردو حينما تلقيت الإهانة الأولى وقيل لي إن المتعاملين معي يطلبون مستحقاتهم في مدة لا تتجاوز أربعًا وعشرين ساعة أو التوقيف والسجن...<<<sup>2</sup> ، شعر وكأن مونسنيور ابن زماننا وعصرنا ، أو أنه طار على جناح السرعة ليحط الرحال بيننا، فضمير المتكلم في السرد يعمل على نقل الشخصية التاريخية من زمنها إلى زمن جديد يعيشه الروائي . كما أن ضمير المتكلم دون غيره يؤدي بالقارئ إلى أن يأخذ أوضح فكرة عن تلك الشخصية الساردة ، لأنها تكلمه مباشرة من دون وسائط ، مما يعطي للأخبار أكثر مصداقية ، ويترك الأثر العميق في نفسية المتلقي .

إن من المزايا التي نسجلها لصالح التقديم الذاتي عبر ضمير المتكلم ، كذلك التغلغل في بواطن الشخصيات ومعرفة الكثير عن دواخلها ونفسياتها . هذا الضمير الذي يزداد فاعلية في التقديم كلما تعلق الأمر بالشخصيات التاريخية ، على غرار شخصية الأمير عبد القادر وشخصية مونسنيور ديوش ، التي يعلم عنها المتلقي معلومات محددة تقدمها له الوثائق التاريخية . إلا أن معرفته لها تبقى دوما ناقصة وغير مشبعة ، لأنها بحاجة إلى كاشف فني يجعلها أكثر جلاء ووضوحا ، ويعمل على أنستتها واستبطانها داخليا .

من خلال تعقبنا للتقديمات الذاتية في رواية "كتاب الأمير" ، تبين لنا أن التقديم الذاتي من الشخصيات ، سواء كان فرديا أم عن طريق الحوار ، قد كشف عن مدى استيعاب كل شخصية لنفسها سواء بكسر بعض القوانين ، أم ببلورة حضورها عبر مواقف متعددة ، حيث تمتد الجسور بينها وبين متلقيها الذي يكون أقرب إلى ما تشعر به

1 - ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة ، مرجع سابق ، ص: 66.

2 - الرواية ، ص: 491.

الشخصية وتحس به وتطمح إليه ، فيستطيع التعرف عليها ، ويفهم تلك التغيرات التي تصاحبها.

هذا ولا تخلو التقديمات الغيرية من فائدة ، فهي بدورها تجسد لنا صور الشخصيات ومظاهرها ، وما تحب أن تفعله ، وما هي مقدمة عليه ، فالسارد يستطيع أن يقترب إلى درجة الامتزاج بشخصياته ، فيعرف أهم الأحداث الدقيقة عن الشخصيات ، حين يلامس أفكارها ودواخلها وأفعالها ، مما يضيف عليها جمالا مميزا .

لقد كان لأشكال التقديم هذه ، بالإجمال دور كبير في تعرفنا - نحن - على أبرز المكونات ، والقيم ، والعلاقات فيما يخص بنية الشخصيات ككل ، التي تم تشكيلها من طرف الروائي انطلاقا من أرضية تاريخية ، ليتم تجاوزها فيما بعد عبر فتح المجال لأفق المتخيل الروائي الذي يعمل على المحافظة على أشكالها التاريخية ، ويجري تعديلات وإضافات على مستوى الأفكار والرؤى واللغة .

### 3- تصنيف الشخصيات :

تتعدد معايير التمييز بين الشخصيات الرئيسية والثانوية ، بحكم اختلاف الأشكال الروائية ، وتغير معايير تقييم الفرد سواء عبر التاريخ ، أو اختلافهما من ثقافة إلى أخرى ، ومن مجتمع إلى آخر .

يحدد روجر هينكل في كتابه " قراءة الرواية " خصائص الشخصيات الرئيسة

في ثلاثة عناصر هي :

- مدى تعقيد الشخصية.
- مدى الاهتمام الذي تستأثر به بعض الشخصيات.
- مدى العمق الشخصي الذي يبدو أن إحدى الشخصيات تجسده<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - روجر هينكل : قراءة الرواية ، تر : صلاح رزق ، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، 1995 ، ص : 233 .

يقصد بمعيار تعقيد الشخصية نمط الشخصيات المعقدة التي ترجع أفعالها وتصرفاتها إلى مجموعة متداخلة ومركبة من الدوافع والانفعالات المتناقضة ، بما يجعلها عرضة لتغيرات حاسمة . ومعنى ذلك أن الشخصيات الرئيسية تمثل نماذج إنسانية معقدة وليست نماذج بسيطة ، وهذا التعقيد هو الذي يمنحها القدرة على اجتذاب القارئ ، هذا المعيار يخص الشخصية في ذاتها وفي هويتها النفسية . بالمقابل يخص معيار الأهمية بناء الشخصية ، وطرق تقديمها على المستوى السردى ، فالشخصيات الرئيسية هي التي تستأثر دائما باهتمام السارد ، حين يخصها دون غيرها من الشخصيات الأخرى بقدر من التميز، حين يمنحها حضورا مكثفا ، وتحضى بمكانة متفوقة . هذا الاهتمام يجعلها في مركز اهتمام الشخصيات الأخرى وليس السارد فقط . ويقصد بمعيار العمق الشخصي غموض الشخصية ، بما يجعلها مثار اهتمام الآخرين " ذلك أن جميع الناس الذين يلفهم الغموض أو تشكل حياتهم لغزا غامضا، يستثيرون شغفنا"<sup>1</sup> .

يسمى ( فورستر ) الناقد الانجليزي الشخصيات المعقدة بالشخصيات المدورة، وهو أول من اصطنع هذا المصطلح<sup>2</sup> ، ذلك أن هذه الشخصيات تجسد كل أنواع التنوع والتعقيد في الطبيعة الإنسانية . ويسمى بعض النقاد الشخصيات المكثفة أو النامية ، وهي الشخصيات المركبة التي لا تستقر على حال لأنها متبدلة الأحوال .

والشخصيات المكثفة النامية في نظر محمد غنيمي هلال تتطور وتنمو بصراعتها مع الأحداث أو المجتمع ، فتتكشف للقارئ كلما تقدمت في القصة ، وتفاجئه بما تعنى به من جوانب عواطفها الإنسانية المعقدة ، ويقدمها القصص على نحو مقنع فنيا<sup>3</sup> . ويعد الإقناع والمفاجئة شرطين أساسيين في الشخصية النامية ، إذ إن كل تغير في موقف الشخصية ، وكل تصرف من تصرفاتها يؤدي إلى تطور في أحداث الرواية . في مقابل هذا نجد ما

<sup>1</sup> - روجر هينكل: قراءة الرواية، مرجع سابق ، ص: 242.

<sup>2</sup> - ينظر: عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية ، مرجع سابق ، ص : 87.

<sup>3</sup> - محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ، بيروت ، ( د ، ط ) ، 1987 ، ص: 566.

يسميه فورستر بالشخصيات المسطحة ، التي غالبا ما تعكس فكرة ثابتة لدى مؤلفها ، فهذه الشخصيات تنبني حول فكرة واحدة ، ولا تتغير طوال الرواية . ويصفها غنيمي هلال بأنها الشخصيات البسيطة في صراعها غير المعقد ، وتمثل صفة وعاطفة واحدة تظل سائدة بها من بداية الرواية حتى نهايتها<sup>1</sup> .

على أساس هذا التقابل بين النمطين ، تتميز الشخصيات المدورة بكثافة سيكولوجية ، وتمثل في أغلب الأوقات حالة درامية معقدة ومركبة ، بينما تفتقر الشخصيات المسطحة لتلك الكثافة السيكولوجية والتعقيد الذي يميز الطبيعة الإنسانية، ولأنها ذات بعد أحادي ثابت غير متغير .

### 3-1- الشخصيات الرئيسية :

#### أ - شخصية البطل :

يبدو أن شخصية البطل عبد القادر في رواية "كتاب الأمير" تتوفر على كل معايير التعقيد وإجراءات التفرد ، أي على مجموع الخصائص البنيوية والسردية التي تتفرد بها شخصية مقارنة مع باقي الشخصيات ، وتمنحها صفة الشخصية البطلية . فشخصية الأمير عبد القادر إضافة إلى أنها تستأثر بعنوان الرواية " كتاب الأمير " ، حيث يستمد النص عنوانه من صفة الشخصية الأمير ، والتي لم تكن الدال الوحيد عليه في الرواية ، إذ نجد دوالا أخرى مثل : عبد القادر ، أمير المؤمنين ، السلطان عبد القادر ... إلا أن أكثرها ورودا في الرواية هو لفظ "الأمير" ، نظرا لأن هذا الاسم يرتبط ارتباطا وثيقا بالحروب ، والمعارك ، كما أنه شديد الالتصاق بشخصية عبد القادر بن محي الدين الجزائري .

تردد لفظ "الأمير" أكثر ما تردد على لسان الراوي ، باعتبار أنه هو الذي يسرد قصة الأمير في جانبها الحربي ، الذي استغرق جزءا لا يستهان به من الرواية ، فنجد مثلا :

<sup>1</sup> - محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، مرجع سابق ، ص: 565.

>> لم يغادر الأمير مجلسه الحربي...<<<sup>1</sup> ، >> عندما التفت الأمير صوب الجهة الغربية...<<<sup>2</sup> ، >> أعداد جيش الأمير لا تحصى<<<sup>3</sup> . أما لفظ أمير المؤمنين فيكثر تداوله في أوساط خلفاء الأمير وقادته وجنده : >> نعدك يا أمير المؤمنين إما أن نموت جميعا أو نمر جميعا <<<sup>4</sup> . بينما نجد لفظ السلطان يتردد على لسان الآخر الفرنسي خصوصا صديقه مونسنيور ديوش : >> أيها السلطان رفقتك علمتني الكثير <<<sup>5</sup> ، >> أرايت أيها السلطان الكريم بدأنا نشيخ ولم نعد نطبق البرد <<<sup>6</sup> . ولعل أقل هذه المسميات ورودا في الرواية هو الاسم الحقيقي للشخصية " عبد القادر " ، إذ لا نلفي استعمالا كبيرا لهذا الدال ، ونادرا ما نصادفه على لسان أم الأمير الزهراء ، وعلى لسان صديقه العزيز مونسنيور ، وبالأخص حينما يتكلم عنه أو معه القادة والعسكريون الفرنسيون : >> كلمتك تكفيني يا عبد القادر...<<<sup>7</sup> ، >> على ملك المغرب أن يكون واضحا في علاقته مع عبد القادر <<<sup>8</sup> .

أما عن ملامح الشخصية ، فالأمير كان في ذلك الوقت عمره يقارب الخامسة والثلاثين ، ذوقامة معتدلة ، يتبدى عليه وقار وهيبة ، وجهه دائري وملامحه متكاملة ومنسجمة ، كث اللحية أسودها ، أما بشرة وجهه فيضأ تعتربها بعض الصفرة ، إلا أن الحر وسمها ببعض السمرة ، عيناه زرقاوان جميلتان ، نظراته دائما في حالة تأمل وخجل ولكنه حينما يتحدث تتقد عيناه بقوة ، وكلما تعلق الأمر بالدين رقرقتا خشوعا ، تحفوه بساطة وصمت في غير تفريط ، يبدو عليه الانزعاج من هالة القداسة التي تحيط به ، قليل

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 394

<sup>2</sup> - الرواية ، ص: 348

<sup>3</sup> - الرواية ، ص: 338

<sup>4</sup> - الرواية ، ص: 395

<sup>5</sup> - الرواية ، ص: 529

<sup>6</sup> - الرواية ، ص: 534

<sup>7</sup> - الرواية ، ص: 499

<sup>8</sup> - الرواية ، ص: 332

الضحك . ومن الصعب رؤيته على حال الضحك<sup>1</sup> . ووصفه صديقه مونسيور في خاتمة كتابه المهدي إلى الرئيس الفرنسي لويس نابليون بما يلي : >> عبد القادر ، مثل نابليون متدين وهادئ وبسيط في ملبسه ... حيوي وشجاع وسيد نفسه ، صادق وعبد لوعده ، ولا شيء يفقده صوابه مثل الكذب والبهتان ، متفان في خدمة عائلته ، يمارس نوعا من السحر على كل الذين يقتربون منه ، وسخاؤه أهل لكل مديح . وهناك ملمح آخر للشبه هو الحنان ... وأخشى أني إذا واصلت في ذكر مناقبه أن أبدو بدوري مأخوذا بسحر هذا الرجل..<<<sup>2</sup> .

إضافة إلى هذه الملامح التي حددها مونسيور فيما يخص مناقب الأمير التي لا تصدر إلا من شخص معجب بالأمير ، نجد أيضا ملامحا أخرى تتعلق هذه المرة بثقافة الأمير وسعة اطلاعه : >> كنت أعرف قليل من الفلسفة اليونانية ، سقراط ، أفلاطون ، وخصوصا أرسطو الذي حفظه من التلف أحد أكبر مفكرينا : ابن رشد عندما كان ظلام اللاتسامح ينخر أوروبا من الداخل ، ولكن اكتشاف ليديكارث قريني من هذه الأرض ، روسو حجب إلي المجتمع ، وهو على حق فيما يتعلق بالحرية . حزنت لغاليليو . كان يفترض أن يبقى على رأيه ، وأن لا يتراجع أمام القضاء وهو سيد الحق <<<sup>3</sup> . تبدو شخصية الأمير هنا منفتحة على ثقافات متعددة يونانية وأوربية ، إلا أن هذا لا يعني أن الأمير متأثر بعلماء اليونان و أوروبا ، وفلاسفتهم ، ولكنه يراهم على صواب في مسائل عدة أهمها موضوع الحرية الذي يعد موضوعا وثيق صلة بالأمير وأحداث الرواية . حينما قدمت للأمير وعود من فرنسا إن هو سلم نفسه أن يهاجر هو وعائلته إلى بلد إسلامي ، لكن الأمر لم يتم تطبيقه وتنكرت فرنسا لعودها ، وأدخلت الأمير لسجن قصر أمبواز الذي مكث فيه قرابة خمس سنوات أو يزيد ، مما حز في نفس الأمير ، وجعله يتكلم

<sup>1</sup> - ينظر: الرواية ، ص: 282 .

<sup>2</sup> - الرواية ، ص: 485 .

<sup>3</sup> - الرواية ، ص: 490 .

كثيرا عن موضوع الحرية ، وهو الذي سلم نفسه عن طواعية وقناعة : >> والله لو جمعت كل كنوز الدنيا في برنسي وطلب مني أن أضعها في مقابل حريتي لاخترت حريتي لا أطلب لا شفقة ولا منة ، أطلب فقط تطبيق الالتزامات التي اتخذت تجاهي <<<sup>1</sup>.

إن شخصية الأمير الإنسانية والطيبة والمتزنة ، جعلته يمارس سحرا على كل من يلتقي به وتقع عينه عليه ، بحيث أنه لا يرد كلام عن الأمير ، إلا وكان إيجابيا فيه إعجاب ومدح واعتراف بنبل وجمال شخصه ، مما يدل على أن تأثير شخصية الأمير لم يتوقف عند الراهب مونسنيور ، بل نجده يشمل كل من رآه وجالسه وعرف حقيقته : >> أتعرف يا جون ، كلما تأملت هذا الرجل ، ازددت محبة له ولأخلاقه ، الأناية مؤذية في البداية تمنيته مسيحيا ..... ، ولكن مع الزمن تأكدت أن هذا الرجل الذي يشبهنا في كل شيء لا يمكن أن يكون إلا هو رجل محب لكل شيء ، يقرب الإنسان من المحبة والله <<<sup>2</sup> . وهذا الكولونيل دوما يقول : >> لم تغيرك فرنسا كثيرا وهي التي كانت تحلم أن تجعلك مواطنا من ذويها <<<sup>3</sup>.

كما يبدو الأمير معلما للآخر في مجال القيم الإنسانية ، حيث يبين له المعنى الحقيقي للحب وللعدالة ، لهذا نجد الأمير عبد القادر ينتقد القس ديوش لأنه قد ميز بين الأسرى الفرنسيين ، وهو ما لا يتوافق مع المبادئ التي طالما كان يرددتها الآخر المسيحي ، حيث بعث برسالة للأمير يطلب فيها تسريح سجين فرنسي كان القس يعرف عائلته ، فأجاب الأمير أنه كان الأصوب أن يطلب منه تسريح جميع الأسرى باسم العدالة .

ونلاحظ كذلك أن الأمير لم تتوطد علاقته بمونسنيور إلا بعد أن تراجع هذا الأخير عن فكرة تنصيره ، حيث أقر القس المسيحي بأن الأمير رجل لا يمكن أن يكون إلا هو ، هو فقط خصوصا عندما برهن له الأمير على انفتاحه وقابليته للحوار ، ولم يمانع

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 473.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص: 217 - 218.

<sup>3</sup> - الرواية ، ص: 464.

من قراءة كتاب الآخر المقدس ، مما جعل مونسنيور يعرف أن عدم التوافق في الدين ليس من شأنه أن يعرقل التواصل الإنساني ، وهو ما ظهر واضحا من خلال حوارات الأمير مع صديقه القس ديوش التي شغلت حيزا واسعا في الرواية .

عمد الروائي في موضع من الرواية إلى إقحام الشخصية في أجواء لم تألفها ولم تعود عليها ، نظرا لطبيعتها الدينية المحافظة ، ولكن الظروف التي مرت بها الشخصية دعته إلى غشيان مثل هذه الأمكنة الخاصة ، ولكنها لم تنغمس فيها كل الانغماس ، إذ نحس مع كلام الأمير عدم رضى وقناعة بما كان يسمعه ويراه ، إلا أن دعوة الرئيس الفرنسي له إلى سهرة الأوبرا كانت أكبر من أن ترد ، وهو الذي تحمل عناء السفر وأتاه شخصيا ليبشره بحريته ، وإطلاق سراحه من سجن قصر أمبواز . يقول السارد عن سهرة الأوبرا : >> عندما بدأ العرض ، عرف الأمير لماذا تفادى مونسنيور أوبرا موسى . فقد شعر بخجل كبير من رؤية الأجساد العارية وهي تتقاطع على منصة الأوبرا ، ولكنه لم يعلق كثيرا حتى وهو في جناحه في النزل يستعيد ما رآه لحظة ، لحظة ويستغفر الله على المشاهد التي رآها <<<sup>1</sup> . ولعل السارد هنا قد سعى إلى نزع بعض القداسة التي كانت كثيرا ما تصاحب الشخصيات التاريخية المعروفة بالتدين والزهد مثل الأمير ، ولكن رغم ذلك حرص الروائي على إظهار عدم رضى الشخصية بتلك الأمور بقوله : >> ولكنه لم يعلق كثيرا حتى وهو في جناحه في النزل << ، مما يعني أن الشخصية قد أقحمت في فضاء لم تجد بدا منه ، حيث ظهر بعض ندمها حينما دخلته : ( عرف الأمير لماذا تفادى مونسنيور أوبرا موسى ) . كما أنه شعر بخجل كبير لا يشعر به المتعود المتمرس ( فقد شعر بخجل كبير ) .

إن شخصية البطل الأمير عبد القادر تقع في قلب المتن الحكائي ، حيث إنها موضوع الرواية ومدار كل أحداثه ، تمارس دورها خطوة خطوة ، ترتبط تقريبا بكل

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 507.



الأحداث ، وتدخل في علاقات مع الشخصيات كلها ، وبالرغم من عناصر التخيل المضافة ، إلا أن شخصية الأمير تبقى ذات مرجعية تاريخية ، وهي تحيل على معنى ثابت قبلي في الواقع ، تفرضه ثقافة يشارك القارئ في تشكيلها ، من خلال ما يكتسبه من معلومات عنها .

### ب - مونسنيور أنطوان أدولف ديوش :

تمثل شخصية القس ديوش في الرواية الشخصية المحورية الثانية ، بعد البطل الأمير ، وهي صوت مواز لصوت الأمير ، إذ اهتم الروائي أيما اهتمام بتجسيد أعماقها الداخلية ، عن طريق كتابة الرسائل المبعوثة إلى الأمير ، أو من خلال الكتاب الذي أراد القس إهداءه للرئيس لويس نابليون ، وقد ظهر صوت هذه الشخصية بالخصوص في الوقفة الأولى ، وظهرت أبرز ملامحها من خلال حوارات مونسنيور ديوش مع الأمير ، ووصف خادمه جون موبي له : >> مشى مونسنيور خطوات وهو يتحسس أوراقه . الملف الذي بين يديه كبير ومرتبك ، الخمسون سنة لم تتعبه لكن مظهر السنوات يبدو واضحاً على محياه وكأنه عاش أكثر من سنه ، لحيته المنطلقة حتى صدره وشعره المخفف كثيراً على الأطراف ورشحات الشيب التي تبدو واضحة هنا وهناك ولباسه الفضفاض الذي يشبه لباس الكهنة وصلبيه الكبير الذي لا يغادر صدره والخاتم الخشن الذي يملأ جزءاً من سبابته ، تعطيه أكثر من سنه المعتاد <<<sup>1</sup> .

تظهر شخصية القس ديوش كشخصية مضاعفة موازية للشخصية المحورية ، حيث نصادفها في الرواية بكل ثقلها ووظيفتها ودورها في توجيه الأحداث والمصائر . شخصية جسدت كل معاني وقيم التسامح الديني ، وانتصرت للحوار الحضاري الذي لم

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 124.

يحد منه اختلاف الأديان . أحب أرض الجزائر من كل قلبه ، ولم يدخر أي جهد في مساعدة فقرائها والمعدومين واليتامى من أهلها . يقول عنه خادمه جون أقرب الناس إليه : >> رأيت في عينيه اشتعلات يتامى الجزائر ودم رجله وهو ينزع الحذاءين مساء مصحوبا بجلدة القدم التي بقيت ملتصقة بعمق الحذاء الأيمن من كثرة الركض بين مختلف الأمكنة للاطمئنان على من هم في حاجة إليه <<<sup>1</sup> .

دافع مونسنيور عن الجزائر وعن رجلها الكبير الأمير عبد القادر ، فجعل حياته كلها رهن تبرئته وإطلاق سراحه من سجنه بقصر أمبواز ، وهو ما تمكن ديوش من إدراكه من خلال كتابة " عبد القادر الجزائري في قصر الأمبواز ، عام 1849م ، المهدى إلى الرئيس الفرنسي . كل الأعمال الخيرية التي كان يقوم بها القس ديوش ، جعلته شخصية محبوبة عند الجميع ، لأنه رغم فقره ومرضه ، وكل آلامه لم يكن ينتظر جزاء أو ردا للجميل من الذين يقدم لهم يد المساعدة ، والأمير واحد من هؤلاء ، إذ يقر لهذه الشخصية بقوله : >> لقد أدت ما كان عليك أن تؤديه . أنا متأكد اليوم أن الناس الخيرين يذكرون أعمالك بمحبة كبيرة ... واجبك الكبير هو الذي دفعك لتحمل هذه الديون على ظهرك . لقد بنيت وأنقذت اليتامى ولم تسأل يوما لا عن لونهم ولا عن جنسيتهم ولا عن قناعاتهم . يكفيك هذا <<<sup>2</sup> .

ورغم درجة الإقناع التي تخلفها شخصية ديوش في نفسية القارئ ، باعتبارها الممثلة لمعاني التسامح وحب الخير للناس ، والسعي والتفاني في مساعدتهم ، إلا أنها لم تخلو من مثالب ومؤاخذات تاريخية ، سعى الروائي إلى التخفيف من وطأتها قدر الإمكان ، لكي لا يؤثر ذلك على صورة الشخصية ومستقبلها في الرواية لدى المتلقي . يقول عنه خادمه جون : >> حماسه دفع به إلى تحويل المساجد إلى كنائس أو إلى مستشفيات . هذا لم يحبه فيه كثير من المسلمين . رأوا فيه رجلا غير محق في عمله

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 134.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص: 366.

ولكنهم لا ينسون خيره في إطلاق سراح المساجين ، والتكفل بالأيتام ومساعدة المعدمين <<<sup>1</sup>.

لعل في إجراء هذا الكلام الأخير على لسان صديق مونسنيور وخادمه المقرب إليه ، ما يوحي بعدم تقصد الإساءة من طرف القس ديوش ، حيث لم يكن العتاب قاسيا ( رأوا فيه رجلا غير محقق في عمله ) ، كما أن السارد لم يحصر تحويل المساجد إلى كنائس فقط ، بل أضاف لذلك ذكر "المستشفيات" ، باعتبارها المكان الذي يحتاجه كل الناس ، لتخف بذلك حدة المؤاخذة الموجهة إلى الشخصية . ولم يتوقف السارد عند هذا الحد ، وبدأ يذكر أعمالا إيجابية يبرهن بها على عدم أنانية الشخصية ، خصوصا بعدما تعرف مونسنيور على شخصية الأمير : >> فهو من ركض طولا وعرضا ليعطي الأمير وحاشيته مكانا يصلون فيه ويقيمون فيه آذانهم في قصر أمبواز <<<sup>2</sup>.

لقد بدت شخصية الأسقف السابق للجزائر مونسنيور ديوش ، شخصية فعالة في المتن الحكائي ، وهي لا تقل أهمية عن شخصية البطل الأمير عبد القادر ، حيث نجدها تمتلك كل امتيازات الشخصية المحورية التي لا نحس بغيابها أبدا عن مجريات السرد ، وتتواجد في أهم الأجزاء الروائية ، خاصة الافتتاحية ، والخاتمة . ونحن ندرك أهمية ذلك في البنية السردية ، وعملية جذب المتلقي لمتابعة السرد .

إن المشاهد الحوارية كان لها دور كبير في بروز هذه الشخصية ، سواء مع الأمير عبد القادر في سجنه بقصر الأمبواز ، أم مع جون موبي خادمه الوفي ورفيق دربه . وتم التركيز كثيرا على هذه الشخصية من طرف الروائي لأنها تجسد كل معاني التسامح والانفتاح وتقبل الآخر ، الأمر الذي ساعد على إقامة حوار بناء بين الإسلام والنصرانية .

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 432.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص: 432.

## 3-2- الشخصيات الثانوية :

تقوم الشخصيات الثانوية بأدوار محدودة إذا ما قورنت بأدوار الشخصيات الرئيسية . قد تكون صديقة الشخصية الرئيسية ، أو إحدى الشخصيات التي تظهر في المشهد الروائي بين الفينة والأخرى ، وقد تقوم بدور تكميلي مساعد للبطل أو معيق له ، وغالبا ما يكون ظهورها في سياق أحداث ، أو مشاهد ليس لها كبير أهمية في الحكى، وهي بصفة عامة أقل تعقيدا وعمقا مقارنة بالشخصيات المحورية ، حيث ترسم على نحو سطحي ، ولا تحض بقدر كبير من الاهتمام من طرف السارد في شكل بناءها السردي، وغالبا ما تقدم جانبا واحدا من جوانب التجربة الإنسانية<sup>1</sup> . فـشخصيات من مثل : جون موبي ، مصطفى بن التهامي ، محمد بن قدور بن رويلة ، ابن المبارك ، وكذا بعض العسكريين الفرنسيين مثل : لامورسيير ، دومشيل ، الدوق دومال ... ، هي شخصيات ثانوية تقوم بأدوار تكميلية هامشية ، إذ يستند عليها الكاتب غالبا كعوامل مساعدة أو عوامل معيقة .

كما أن المعطى التاريخي للرواية قد فرض عليها الانفتاح على شخصيات تاريخية كثيرة ومختلفة ، والتي تظهر وتختفي على امتداد الرواية ، وهذا ما يفرضه توالد الأحداث . فنجد شخصية محي الدين والد الأمير ، ولا لا الزهراء أمه ، كما نجد شخصية الأب سوشو ، ومونسنيور دوباقي .

فإذا أخذنا مثلا شخصية جون موبي نجدها شخصية مسطحة ثانوية سواء من

حيث المقياس الكمي أم المقياس النوعي :

- المقياس الكمي : كمية المعلومات المعطاة حول هذه الشخصية ضئيلة جدا ،

فالسارد لا يذكر لنا إلا أنه خادم مونسنيور ديبوش ، ورفيق دربه ، حيث كان يكن

له سيده حبا كبيرا : <<عزيزي جون ، أعذرني ، لقد أرهقتك كثيرا..>><sup>2</sup> .

<sup>1</sup> - محمد بوعزة : تحليل النص السردي ، مرجع سابق ، ص: 57.

<sup>2</sup> - الرواية ، ص: 210.

>> حبيبي جون ، ليس لدي أي اقتراح لك ، ولكنني سأكون سعيدا إذا قاسمتني مصيري حتى الموت << . وقد بقي جون وفيما لسيدته ديبوش ، حتى وفاته ، لأنه كان بالنسبة إليه كل شيء ، فهو الأب والأخ والعائلة . يقول جون : >> أنت تعرف يا سيدي ماذا يعني لي وجودك والعمل معك ، لا أب لي ولا أم ، لا أحد غيرك يملأ القلب ، وكلمة صحبتك في رحلتك أحسست بأن حياتي لها معنى <<<sup>1</sup> .

إن شخصية جون تكتسي أهميتها في الحكيم من خلال ارتباطها بشخصية القس ديبوش ، فهو يرافقه ويحكي لنا قصته مع الأمير ، ولا نجده يشارك في حوارات الأمير مع ديبوش ، ويكتفي بالسرود فقط ، فهي شخصية ساردة غير مفعلة في الأحداث ، تبرز بعض ملامحها حينما يحكي جون عن معاناة سيده في البحث والتنقيب عن الوثائق وقصاصات الجرائد ، من أجل إنهاء " كتاب الأمير" ، أو عندما يتحاور مع الصياد المالطي ويتذكر سيده مونسينور ديبوش : >> هكذا كان سيدي يشتهي أن يبعر رماد تربته في كل الأطراف عله يطفئ النيران المشتعلة في أعماق الناس <<<sup>2</sup> . فشخصية جون موبى شخصية تسرد الأحداث ، ولكنها لا تشارك فيها بفاعلية . وإن كنا في بعض الأحيان نحس بوجودها إلا أن لها صوت خافت داخل الحكيم .

أما من ناحية المعلومات التي تقدمها لنا الرواية عن شخصية جون موبى فهي موجودة على مستوى مرجعيتها ، مع إضافة واحدة أضافها الروائي إلى أحداث التاريخ الكبرى ، أن جعل جون يحقق أمنيته بالذهاب للجزائر ، لاستقبال السفينة التي كانت تحمل رفات سيده مونسينور ديبوش .

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 210 .

<sup>2</sup> - الرواية ، ص: 15 .

- المقياس النوعي : يرتبط حضور شخصية جون موبي في الحكى بوجود مونسنيور ديوش ، والحكى عنه ، وبالتالي فهو لا يتمتع بوجود مستقل داخل الحكى ، وحضوره يأتي تدريجيا على فترات متباعدة ، ولا يتميز بالاستمرارية . الأمر الذي ينطبق كذلك على شخصية مصطفى بن التهامي صهر الأمير عبد القادر ، وابن عمه والمكلف بالمراسلات مع سلطان المغرب ، والمسير لشؤون الدولة وخلافة تلمسان ، والذي كلف فيما بعد بتدوين سيرة الأمير بقصر أمبواز ، حيث لا تغيب عنه شاردة ولا واردة إلا كتبها . وقد كان أبرز ظهور لهذه الشخصية ، من خلال سرد أحداث حادثة الذبح التي أمر بها بن التهامي في غياب الأمير ، مما جعل هذا الأخير ينقده بشدة : >> أعطيتك مسؤولية حماية المساجين وليس ذبحهم .. <<<sup>1</sup> . وينسحب الأمر كذلك على شخصية محمد بن قدور برويلة كاتب الأمير بالجزائر ، ومرافقه في تحركاته الحربية وغيرها .

وكذا هو الشأن بالنسبة لرجال الجيش الفرنسيين الذين يتم إيراد أسمائهم عندما تدور المعارك العسكرية بين الجانبين الجزائري والفرنسي ، ويقتصر الذكر على القادة والضباط السامين دون الجند الذين ينفذون الأوامر فحسب ، ويكون إيرادها كذلك حين تضع الحرب أوزارها . وتختلف هذه الشخصيات التي قد تكون - رغم كونها تاريخية - ذات أبعاد فنية . فالجنرال رولهير وزير الحرب يذكر مرة واحدة ، على أنه كان معترضا على إطلاق سراح الأمير<sup>2</sup> . والجنرالات : سانت آرنو ، وروكي ، وأوجين دوما كانوا مصاحبين للبرانس لويس نابليون عند زيارته للأمير في سجنه ، وإعلامه بقرار إطلاق سراحه : >> جئت لأخبرك بحريتك ، ستقاد إلى بروسيا في دولة السلطان ، وعندما تنتهي من الترتيبات الضرورية ، ستلقى من الحكومة الفرنسية معاملة كريمة تليق بمقامك العالي <<<sup>3</sup> . والكولونيل دوبراي ، والكولونيل يوسف شاركا في معركة ضد

<sup>1</sup> - الرواية، ص: 358

<sup>2</sup> - الرواية، ص: 472

<sup>3</sup> - الرواية، ص: 499

جيش الأمير قرب عين طاجين ، والكولونيل مونطوبان ، والكولونيل مكماهون شاركوا في الحرب ضد عبد القادر ، وخططا للقبض عليه . وكذلك القائد شانقارنيه حضر مجلسا استثنائيا دعا إليه نابليون لمناقشة وضعية الأمير الذي ظل حبيسا في قصر أمبواز . هذا بالإضافة إلى "المارشال فالي" وبيجو طاوماس روبرت ، الذي كان من دعاة الاستيطان الفرنسي في الجزائر ، زحف على مليانة سنة 1841 ، وأعطى الأمر بحرق كل المحاصيل وقلع الأشجار وتدمير كل شيء واقف ، والاستيلاء على رؤوس الأغنام والأبقار والأحصنة<sup>1</sup> .

إن معظم الشخصيات الآتفة الذكر شخصيات فرض وجودها في النص الروائي المعطى التاريخي ، وهي تمتاز بأنها مسطحة وثابة ، ليست لها جاذبية كبيرة ، تقوم بأدوار عرضية ، لا تغير في مجرى الحكى ، كما أن غيابها عنه لا يؤثر في فهم العمل الروائي . إلا أنها بالرغم من هذا قد ساهمت في إقامة عالم الرواية الحكائي ، وخاصة شخصية جون موبي ، بما أكملته من مشاهد وحوارات وسدها لكثير من الثغرات . كما أن حركة كثير منها قد أضفى على الرواية صبغة أكثر فنية ، فضلا على أنها قد أسهمت في الحفاظ على الطابع التاريخي الذي يميز رواية "كتاب الأمير" .

إن ما أحدثه النص الروائي على مستوى الشخصيات لا يختلف كثيرا عن باقي الممارسات الروائية الجديدة التي تتعاطى مع التاريخ ، إلا أنه اكتسب بعض ملامح التميز والتفرد في أنه لم يستعن بشخصيات أخرى متخيلة تساعده على توسيع مساحة المتخيل في الرواية . ورغم هذا استطاع أن يصور لنا الشخصيات في قالب تاريخي فني ، في قمة الروعة ، إذ استطاع الروائي عن طريق اللغة أن يتجاوز ببراعة صرامة معطيات التاريخ ، ويقدم لنا قصة الأمير في إطار حوار شيق للأديان ، دون إلغاء للمرجعيات التاريخية أو تجاهل لها .

<sup>1</sup> - أحمد الجوة : تفاعل التاريخي والروائي في "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج ، مجلة قراءات (مخبر وحدة التكوين والبحث في نظرية القراءة ومناهجها) ، العدد : 2010 ، بسكرة ، الجزائر ، ص: 296-297.

## 4- الشخصية والحيز الروائي :

للحيز في العمل الروائي حضوره ، وللإنسان في الحيز حضوره ، وللزمان في الحيز الروائي حضوره ، وللغة دورها كذلك في تجسيد هذا الحضور ، وربطه بغيره من عناصر الخطاب الروائي ربطا يجعل منه نسيجاً متشابكاً ، محكم التلاحم ، والتماسك. وهذا النسيج المتواشج هو الرواية التي تروي لنا حوادثها بأساليب تختلف باختلاف كتابها وصانعي عوالمها المتخيلة .

وإذا تأملنا الحيز أو المكان الروائي ، وجدنا أنه هو الذي يمثل البعد الواقعي للنص، وهو الفضاء الذي تجري فيه الأحداث . ولا نبالغ إن قلنا أنه من العناصر المتقدمة والمهمة ، لما له من تأثير عميق على تصوير الشخصيات الروائية . كما أنه ركن ركين يقوم عليه البناء السردى ككل .

إن ثقافة المكان تشكل بنية نصية حية في العمل الروائي ، لها قدرتها على التفاعل والانسجام مع الشخصيات والأحداث ، كما تمكن الروائي من النهوض ببنيات الحوار ، فتخرج المكان عن إطاره الجغرافى ، لتشكل فضاءات جديدة تصنعها فاعلية المكان مع شخصياته ، إذا اعتبرنا المكان سلطة لها ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، تمارس فعلها الإيجابى على مستوى الحضور والتفاعل والتجدد ، ولها القدرة على أن تكون ذاكرة مؤسسة للإنتاج المعرفى بحكم دلالة ما أنتجته من اتحاد الشخصيات والأحداث بها. وبذلك يصبح المكان في الرواية ليس بما هو موجود في مسرح عمليات الرواية ، ولكنه بما يخدم شكل الرواية ومضامينها<sup>1</sup>.

إن التفاعل بين الشخصيات وحيز وجودها ، شيء مستمر دائم في الرواية ، مثلما هو دائم ومستمر في الحياة . فتكوين الحيز أو المكان ، وما يعتوره من تغير في بعض

<sup>1</sup> - فارس عبد الله الرحاوي : ثقافة المكان وأثرها في الشخصية الروائية ، رواية (ليلة الملاك) نموذجاً ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد 11 ، العدد : 02 ، سبتمبر 2011 ، معهد إعداد المعلمين ، نينوى العراق ، ص: 265.



الأحيان ، يؤثر تأثيرا كبيرا في تكوين الشخصيات ، وقد يكون وصف الأمكنة من الدوافع التي تجعلنا نفهم الأسرار العميقة للشخصية الروائية . فهو وصف لا يقتصر على الإطار الجغرافي الذي تقع فيه الحوادث ، وإنما يؤدي دورا حيويا في مستوى الفهم ، والتفسير . لذا يمكن النظر إلى الحيز الروائي من حيث هو مدخل من مداخل المتعددة التي يتم من خلالها فهم تحولات الشخصية الروائية داخل عالم الرواية .

بقليل من التأمل نستطيع أن ندرك تأثيرات الحيز في شخصيات رواية كتاب الأمير . فالأمير عبد القادر عانى من مرارة سجن قصر أمبواز ، وانعكس ذلك على نفسيته ومشاعره أيما انعكاس ، وتجلى ذلك عن طريق الأوصاف والكلمات التي يتم من خلالها التعبير عن فضاء السجن ، والتي تعكس لنا ما يعترى نفسية الأمير من حالات شعورية وهموم ، انكشفت لنا بواسطة إبداء الشخصية لرأيها في حيز وجودها ، وتفاعلها معه بكل ما يحمله من قسوة ووحشة واكتئاب ، خصوصا بعدما كانت الشخصية طامعة في خلاصها بعد الوعود التي تلقاها الأمير من الضباط الفرنسيين ، الذين وعدوا الأمير عبد القادر بالهجرة إلى أرض من أراضي الإسلام بعد تسليمه لنفسه . لكن الأمير بعد كل هذه الآمال ، وجد نفسه في "سجن" قصر أمبواز الذي بقي فيه قرابة الخمس سنوات ، بين ما هو إيجابي مشرق وسلبى معذب . ففي الأول تختار الشخصية الألفاظ العذبة الجميلة لوصف خصب المكان وجماله وألفته ، وفي الثاني تنتقي الجمل والألفاظ السلبية لتعبر عن مدى تهميشها وما تلاقيه من عذابات وبؤس وعدم استقرار . ذلك أن الشخصية لم تكن ترى في فضاء سجن قصر أمبواز مكانا مقرفا أو غير صالح للعيش ، بل بالعكس تجد الشخصية فيه متسعا للتنقل والتمتع بمناظر حدائقه الجميلة ، واستقبال الضيوف في غرفة خاصة، كما كان فيه فضاء مخصص لإقامة الصلوات الخمس . إلا أنها كانت تنظر إلى هذا المكان باعتباره حائلا بينها وبين حريتها التي تمثل لها كل شيء وأثمن شيء :

>> لو جمعت كل كنوز الدنيا في برنسي ... مقابل حريتي لاخترت حريتي <<<sup>1</sup>. من هذه الجهة نجد فضاء سجن قصر أمبواز يذكر الأمير بفقده لحريته ، ويذكره بتلك الوعود الكاذبة التي أعطيت له ، مما انعكس على حالته النفسية أيما انعكاس ، وخاصة حينما طالت مدة سجنه .

لقد تعددت علاقات الشخصيات بالأمكنة في رواية كتاب الأمير ، منها ما كان له علاقة بالحالات الشعورية ، ومنها ما كان وثيق الصلة بالواقع الاجتماعي . فالشخصية الروائية مهما ابتعدت عن بيئتها ومجتمعها الأصلي ، بكل ما يحمله من عادات وتقاليد، فإنها تبقى مرتبطة به ، بالرغم ما يوفره المكان الجديد من حاجيات ، وما يخلقه من ألفة واطمئنان . إلا أن الشخصية تظل متمسكة بأفكار وعادات وسلوكات مورثة عن الواقع الأصلي الذي يعبر عن هويتها وانتمائها<sup>2</sup>.

لقد كان للحيز الروائي تأثير واضح على شخصية الأمير عبد القادر ، بما أظهرته من أفكار وعادات محلية جزائرية نلغتها جلية في المشهد الحوارى التالى بين الأمير عبد القادر ، وامرأة تسأله عن الزواج عند المسلمين :

- أرى أنا الزواج عندكم محكوم بفوضى كبيرة ؟.

- أفصحى قليلا ، لم أفهمك جيدا . فهناك من يتهمنى بالانضباط الزائد فى علاقتى وزواجى ولا أشبه أسلافى .

لم يستطيع أن يكتفم ضحكته الخجولة التى انسلت من شفثيه.

- طيب لأقلها لك بدون موارد ولا انزلاقات لغوية . لماذا تتزوجون نساء كثيرات وليس واحدة مثلما نفعل نحن فى ثقافتنا.

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 473.

<sup>2</sup> - ينظر: مسعود العلمى : تحولات الشخصية الروائية فى رواية كتاب الأمير لواسينى الأعرح ، مجلة مقاليد ، العدد الثالث ، ديسمبر 2012 ، ورقة ( الجزائر ) ، ص: 20.

- ابتسم الأمير بحياء مرة أخرى ، ثم مد يده نحو لحيته . مسد عليها قليلا . ثم أجاب بثقة كبيرة ، ولم يد عليه ما يربكه كما كانت السيدة تتصور :  
- قولك في ثقافتنا يبين أن هناك عادات وتقاليد وثقافات وخصوصيات . كل دين له ميزة المكان والقوم الذين نزل فيهم ...

- سيدتي الطيبة ، نقوم علانية بما تقومون به سرىا . بين المرأة والرجل سحر رباني خاص وجاذبية لا تقاوم . الإنسان قد يحب امرأة من أجل عينيها ، أخرى من أجل شفيتها ، ثالثة لجسدها ، وأخرى لنور علمها وفكرها وانفتاح قلبها ، عندما نعثر على امرأة تحمل كل هذه الصفات مثلك ، سنكتفي بواحدة ولن نختار غيرها ونقبل أن نموت في أحضانها . الجمال خلقه الله للرجال والنساء وديننا ودينكم لم يعملوا إلى على تهذيب العلاقات ، بدون إقصائها . هل هذا يكفي أم أضيف شيئا آخر .

- شكرا يا سيدي ، يكفي لهذا اليوم . كلامك طيب ومقنع <<<sup>1</sup>.

يتبين لنا من خلال هذا المقبوس أن المكان يلعب دورا هاما في تفعيل الأفكار والعادات والتقاليد الاجتماعية ، بالنسبة للشخصية مهما ابتعدت عن موطنها الأصلي ، بل نراها تزداد تمسكا به ، ورغم بعدها عنه فإنه يبقى في ذاكرتها وقلبها ، بكل ما يحمله من قيم وسلوكات وعادات تربت عليها الشخصية . فأينما حلت وارتحلت فإنها تحمل معها ثقافتها التي جبلت عليها . لذا نرى الأمير يجيب على تساؤلات المرأة الفرنسية بكل ثقة وقناعه ، وهي التي كانت تظن أنها سوف تخجل الأمير أو تربكه ، لأنها كانت ترى أن تعدد الزوجات أمر غير منطقي ، فأجابها الأمير بما لم تكن تنتظره ، واقتنعت في الأخير بوجهة نظره .

إن المكان بمثابة الأرضية الخصبة التي تتولد عنها تلك العلاقات الاجتماعية ، كما تلعب الشخصيات دورا كبيرا في تكوين المكان وبناءه ، ويكون ذلك عن طريق

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 441 - 442.

حركة الشخصيات التي تعطي للأمكنة لمسة فنية وواقعية ، وتبتعد به عن الديكور المتخيل، خاصة إذا تعلق الأمر بالأمكنة ذات الأبعاد التاريخية والواقعية .

وتنقل الشخصية عبر الأمكنة المفتوحة ينعكس على سلوكياتها ومشاعرها لالتصاقها الشديد بهذه الأمكنة ، فالقس مونسنيور ديوش رغم أنه فرنسي نشأ وترعرع في موطنه ، نجده في بعض الأحيان يتدمر ، ويظهر عدم تقبل لفضاءاتها ، ربما بحكم أنه قد فارق موطنه ردحا من الزمن ، وأنه قد وجد في الأرض التي عاش فيها طويلا أريحية وبساطة لم يجدهما ربما في موطنه الأصلي : >> أتعجب من هؤلاء البارسيين كيف يتحملون هذه المدينة المتعبة . أقيمت بها سنوات ولم أعود عليها ، ضخامتها تخيفني ناسها ينفلتون من كل منطق وينقلبون بسرعة . من الصعب أن تثق في مزاج البارسيين <<<sup>1</sup> .

ولكن هذا الكلام لا يعني أن الشخصية لا تحب وطنها وتتنكر لأهلها وقومها ، بل هو نقد مشروع من طرفها للأجواء السائدة ، ولعقليات بعض الناس . هذا الأمر الذي نجده في كل زمان ومكان . وإذا نظرنا في عادات وتقاليد وثقافة مونسنيور نجدها هي نفسها الموجودة في موطنه الأصلي ، وأنه مثله مثل الأمير ينقل معه ما تعلمه من عادات وسلوكيات أينما حل وارتحل .

إن الروائي في كتاب الأمير أحسن تنسيق أمكنته وجعلها ملائمة للشخصيات وللبعد التاريخي العام للرواية ، حيث نجد هذه الأمكنة محفزة للشخصية ، فتنتقل معبرة عن ثقافتها ، وما يتتابها من مشاعر ، سواء أحببت المكان أم كرهته . وقد استغل الروائي كل وسائله الفنية من أجل أن تظهر أمكنته مناسبة لشخصياته من جهة تعامله معها ، وما يجب أن تتحلى به الشخصيات في حيزها ، الذي ينعكس دائما على أفكارها وسلوكياتها وهويتها وانتمائها إليه .

<sup>1</sup> - الرواية ، ص: 24.

